

عبقرية الامام

للأستاذ محمود أبو رية



لم يؤت أحد من أصحاب رسول الله من العلم والفضل مثل ما أوتي على رضى الله عنه، ولم يرد في حق أحد منهم بالأسانيد الجياد مثلما جاء فيه . وما ظنك برجل خرج هو والنبي من نعمة كريمة واحدة ، ونشأ تحت جناح النبوة وترى في كنفها وتولى رسول الله هدايته وتنقيفه وجعله أولى الناس به فقال له : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ » ، وعلى أنه كان بهذه المكانة فإنه لم ينل أحد من الظلم مثل ما ناله ، ولا لقي إنسان من المصائب والمتاعب مثل ما لقي ؛ فقد أحاط به ما نغص عليه عيشه وأفسد عليه أمره من أحقاد جاهلية وسخائم أموية وضنائف بدوية وإحزن أهدية وغير ذلك . وإذا رجعنا إلى تاريخه ألقيناه قد ضاع بين متشيمين بالغوا في تشميمهم حتى ألهوه ، ومبغضين أمتعوا في بغضهم حتى كفروه

فمثل هذا الإمام العظيم المؤلف في نفسه المختلف في تاريخه كان جديراً ألا يتولى ترجمة حياته ودرس عبقرته إلا مؤرخ حكيم ينفذ إلى نفسيته بفكر ناقب ونظير نافذ ، ويدرس تاريخه بعقل القاضى العادل البصير الذى يبحث ويستقرئ فيرد الأمور إلى أسبابها والأحداث إلى عللها ليخرج هذا التاريخ صحيحاً لا إفراط فيه ولا تفريط ، فيعرف الناس منه فضله ويقدرونه قدره ويقبلون على سيرته يدرسونها وينتعمون بها . ولقد سرنا أن يتولى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد درس تاريخ هذا الإمام وأن يجعل من هذا التاريخ فريدة في سمط عبقرياته النفيسة سماها (عبقرية الأيام)

قرأنا هذا الكتاب قرأنا كاتبنا الكبير يقول في تقديمه : « في كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، لأن هذه السيرة مخاطب الإنسان حينما يحبه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال العظام وتثير فيه أقوى ما يشيره التاريخ البشرى من ضروب المعطف ومواقف المعبرة والتأمل » ، ثم نفذ إلى ما ابتصف به الإمام من مثل التقوى والزهد ، وإلى ما ورثه عن أسرته العريية من النبيل

والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، وبين الآثار العملية لكل ذلك مع أعدائه وأوليائه على السواء ، وانتهى من هذا الفصل إلى (مفتاح شخصيته) ثم تناول هذا المفتاح ليقترح به كل مستغلق من شخصيته ويوضح كل مبهم من سيرته

كسر الأستاذ العقاد كتابه على عشرة فصول بعد التقديم ختمها بفصل عنوانه (صورة مجمل) جرى قلبه فيها كلها بما عهدناه من قبل في عبقرياته التي سبقت من حيث البحث العميق والدرس الدقيق مما كنا نود أن نعطيه حقه من البيان ونوفيه قسطه من الإشادة ، ولكن المقام لا يتسع فلنجتزئ بكلمة صغيرة عن فصل البيعة الذى هو أروع فصول الكتاب

مهد المؤلف لهذا الفصل بفصل آخر عن عصر الإمام قال فيه إنه لم يكن عصر خلافة بل كان عصرأ عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه ؛ فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب فكان في ناحية كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى ، وفي ناحية أخرى كل عوامل التذمر من هذا النظام ، ومضى يبين أسباب استقرار النظام في الجانب الذى كان من نصيب معاوية ؛ فذكر أن الشام كان أرضاً أموية من يوم أن لجأ إليها في الجاهلية أمية جد الأمويين وما جاء بعده من أبنائه متجربين أو مهاجرين إلى أن تولى إمارتها يزيد بن أبي سفيان من قبل أبي بكر الذى جاء بعده معاوية من قبل عمر ذلك الدرهمى الذى قضى زمناً طويلاً لا يعمل عمل الوالى ، ولكن يعمل عمل صاحب الدولة التى يقيمها لنفسه ولأولاده من بعده . وكانت وسيلته في ذلك أن يغمر الناس بالأعطية ، السوقة منهم والشرفاء . وقد بلغ من دهائه أن طوى عقيداً أخاص على بمطائه ، أما المخالفون له فكان جزاءهم العقاب والنقي ، ثم أخذ يصف الجانب الآخر الذى كان يتولاه على ؛ فقال إنه كان مصاباً بملل التنافس بين العواصم والتبرم من العيش والتطلع إلى الخلافة وما تكنه العبيد والموالى لقريش بله ما وراء ذلك كله وهو المال الذى كان في يد معاوية وحده

ولما أنشأ يتكلم عن بيعة على قال إنه يبيع بالخلافة بعد حادثه من أجمع الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام وهى مقتل عثمان ؛ وأخذ يحلل الحوادث التى أفضت إلى قتل هذا الخليفة وموقف على من هذه الجريمة ، وناضل يبراهين قوية عن هذا الموقف ، وانقضى من نضاله إلى أن علياً - لم يكن يقدر على اجتناب هذا الصير

اللغة التي بين يدي في اللفظ الأول فوجدته من لغة طي ، وإذن يكون استعماله جائزاً ؛ أما اللفظان الآخران فإني أرجع فيهما إلى الأستاذ العقاد وأسأله :

هل يجوز استعمال كلمة (فشل) في معنى أخفق وخاب وإن يأتي اسم الفاعل من حنق على حائق هذا إذا لم تكن هذه اللفظة من أخطاء الطبع التي كثرت في هذا الكتاب على غير ما نعهد فيما يطبع بمطبعة المعارف التي عرفت بجودة الطبع ودقته واستشهد بمبارة مشهورة وضعها شيوخ الدين وجعلوها حديثاً للرسول ليعلموا بها قدرهم ، وهي (علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل)

وكنا نود من مؤلفنا وهو الأديب الكبير أن يطيل الحديث في بلاغة الإمام ، وأن يمرض لأسلوبه وطريقته في الكتابة والقول فيدرسها ويبين هذا الأسلوب لكي يعرف الأدباء من هذه الدراسة ما لعل في كتاب نهج البلاغة وما لغيره ، لأن الأدب وتاريخه في حاجة إلى هذا العمل الجليل ؛ ولعله يجعل من هذا الدرس بحثاً فنياً برأسه يضيفه إلى أبحاثه القيمة التي ينفع بها الأدب والأدباء .

محمد أبو رية

(المسورة)

اليوم



من معاوية أو من عثمان نفسه — وأنه صنع غاية ما يصنع رجل معلق بالنقيضين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ، ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ، وإنه كان يعالج داء « استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه » . ثم أخذ بمد ذلك يناقش الذين خرجوا في وجهه بطلابون - زعمهم - بدم عثمان ، فقال عن طلحة والزبير إنهما كانا يهددان أثناء حياة عثمان لتولى الخلافة ؛ أما عائشة فقد كانت تنادى بقتل عثمان وتود أن يتولى الخلافة طلحة لأنه من قبيلتها أو الزبير لأنه زوج أختها

وعلى أنه قد درس مواقف هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يتآمرون على عثمان قبل قتله ، ثم خرجوا على علي بعد ما تولى وأبان وجه الحق في ذلك فإن قلبه كان رقيقاً بمائشة فلم يجبر بشيء من مؤاخذتها

وقد عرض المؤلف لما قام بين علي ومعاوية من خلاف فاستقصى أسبابه البعيدة والقريبة وانتهى إلى أن أمر معاوية لم يكن كما يبدو في ظاهره من أنه كان من أجل عثمان وإنما كان من أجل أبهة الملك وسلطان الحكم ، وقضى بحق أن هذا الخلاف لم يكن بين علي ومعاوية وإنما كان « بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين ، كان صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية » ولا ريب في أن يكون القلب للدولة الدنيوية ، لأن هذا هو ما تقضى به طبائع النفوس وغرائز الأمم . ولقد صدق عمرو ابن العاص في قوله : « لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر »

وقد انتهى كاتبنا من دراسته لتاريخ هذا الإمام إلى أنه « هو الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية » وأجل صورته في أنه كاد « صورة المجاهد في سنبل الله بيده وقلبه وعقله أو صورة الشهيد »

ولنقف عند هذا الحد كما وعدنا إذ لا نستطيع أن نبين كل ما تناوله قلم العقاد من بحث وما نفذ إليه من استقصاء

بقيت أشياء لا بد من ذكرها والإبانة عنها حتى نبلغ من كلامنا ما نريد ، ذلك أني عثرت وأنا أقرأ بيمض ألقاط كنت أوقف عندها مثل لفظ (تملاء ص ٤٠) و (حائتين ص ٥٥) و (فشل ص ٨١ و ٩٦ و ١١٠ و ١٢٦) وقد رجعت إلى معاجم